الفصل الثالث

أثر الفرد فى نمو اللغة

«إن عملية أكتساب اللغة سواء أكانت فى الطفولة (إذ يكتسب الطفل لغة أسرته) أو فى الحياة المتأخرة (حين يتعلم المرء لغة أجنبية) هى عملية واحدة فى جوهرها. فلابد للمرء فيها من أن يكون له منبع للمعلومات، ولابد أن يتعلم المرء كيف يميز عمليات النطق، ويعيد أداءها إذ يمده هذا المنبع بها، ويجب أن يكون المرء قادرًا على تمييز عمليات النطق التي يتعلمها، وتصنيفها»[1] والذى يهمنا هنا هو كيفية كسب الطفل للغة، لأنها هى العملية التى نستطيع بعدئذ على أساسها أن نقرر معنى السليقة اللغوية، وما إذا كان هذا المعنى يتصل بالطبع أو يتصل بالتطبع. والذى يبدو لأول وهلة أن عملية اكتساب اللغة من الناحية النفسية أكثر ما تكون شبها بعملية اكتساب العادات. وبهذا المعنى يصح أن نصف ما يقوم به المرء من حركات وسكنات أثناء التلفظ بلغته الخاصة «عادات نطقية». ولم يكن ابن فارس مجانيًا للصواب حين قال: «تؤخذ اللغة اعتيادًا كالصبى العربى يسمع أبويه وغيرهما فهو يأخذ اللغة عنهم على مر الأوقات»[2].

وواضح أن عملية الاكتساب هذه تستمر طالما كان الفرد عضوًا فى جماعة، واكتساب الفرد للغة عملية تدوم مادامت الحياة: فى الطفولة، وفى المدرسة، وفى الحياة العملية، يتعلم كل فرد كيف يتصل بزملائه. فلا يكاد الطفل يلج باب الحياة حتى يبدأ فى الحصول على أسس لغة الأم. ولأمر ما جعل الله المرأة أكثر من الرجل رغبة فى الكلام. وقد تكون هذه الرغبة فى نفسها خير معوان للطفل فى مراحل اكتسابه للغة؛ فهو ينتفع منها بقوة رغبتها فى الكلام. فيسمع كثيرًا، ويشارك ويحاكى، ويلاحظ الصواب فى الاستعمال، ولو أن العناية بالطفل كانت من نصيب أبيه، وهو أميل إلى

---

(١) Bloch & Trafer, Outline of Linguistic Analyais, p. 7.

(٢) الصاحبى ص ٣٠.

الصمت من أمه، لكانت فرصة المحاكاة عنده أقل، ومن ثم يقل تقدمه فى اكتساب اللغة. ويقول Meringer إن النساء والأطفال أشد محافظة من الرجال من وجهة النظر اللغوية فيما يختص بتطور اللغة[١].

«وفى خلال سنوات ثلاث أو حولها يستكمل المعرفة بمجموع أصواتها ونظام بنيتها ومفرداتها معرفة كافية لجعله واضحًا فى تعبيره عن حاجاته الملحة، ولاستجابته استجابة مناسبة لما يطلبه منه الآخرون، مما يتصل بهذه الحاجات. وكل هذا الدور الإعدادى فى التنشئة اللغوية يجرى فى البيت بأقل توجيه متعمد من هؤلاء المحيطين بالطفل»[٢].

المسألة إذًا مسألة تدريب مستمر على نطق أصوات اللغة، وعلى الإحاطة بصيغها، وما يكون ضروريا للفرد من مفرداتها، وعلى معرفة طرق صياغة جملها المفيدة، على غرار التدريب الذى يقوم به الراغبون فى اكتساب العادات. وليس صحيحًا أن اللغة العربية فى دم العربى، تظهر على لسانه ولو ولد فى بيئة أجنبية. وليس مقبولا أن اللغة توفيقية من عند الله، وأنه تعالى قضى أن تكون للعرب لغة ذات أصوات معنية، وصيغ ومفردات وجمل معينة، وقضى بتفصيل عكس ذلك للفرس، وبغيره مفصلا للترك والروس والإغريق والهند، وهلم جرا، وليس مستساغا أن المرء إذا نشأ على الكلام بلغة بقى أمينًا على تمثيل هذه اللغة ونطقها برغم المؤثرات الخارجية، بل إن الأدلة على عكس ذلك قائمة فى التاريخ العربى نفسه إذ إن نفوذ الموالى الفرس على لغة العرب فى صدر الإسلام، ونفوذ الترك على لهجات العرب فى عصرهم الحديث، يدلان دلالة واضحة على أن الناشئ فى لغة ما قد يلحق التعديل بعض عاداته النطقية. إذا دفعه الاستعمال إلى عادات أخرى لتحل محلها.

وإذا كان صحيحًا أن الطفل يكتسب اللغة بالاحتكاك بمن حوله؛ فيتعلم بالمشاركة والمحاكاة، فإن هاتين الأداتين (المشاركة والمحاكاة) تؤثران فى الكبير كما تؤثران فى الطفل. وإذا كان أثرهما على الطفل إعانته على مطابقة الاستعمالات فى داخل الأسرة التى هى مجتمعة وعالمه، فإن الكبير سيجد فى فسحة الاختلاط العام أسرة تشمل

(١) Jespersen, Lang., p. 102: also Lewis Lang. in Soc.

(٢) اللغة فى المجتمع: الفصل الأول.

المتكلمين بلهجات، أو ربما بلغات مختلفة، ولن تكون المشاركة والمحاكاة هنا عاملين من عوامل المطابقة فحسب، وإنما قد تكونان كذلك من عوامل التشعب وعدم التجانس فى العادات النطقية للمتكلمين بلهجة واحدة. ومعنى ذلك أن العربى من تميم إذا رحل إلى مكة فأقام بين قريش مدة من الزمان، فلربما عاد إلى حيه من تميم وعلى لسانه نطق ما الحجازية، فى مكان ما التميمية، ولربما أقام بين بنى عمومته زمنا وهو يخالفهم فى هذا الاستعمال، حتى يتعود لهجته القديمة من جديد. ولو ظفر به راوية أو لغوى فى ذلك الوقت لاستنبط أن بعض بنى تميم ينطقون ما الحجازية، وجعل ذلك من كشوفه اللغوية التى يبنى عليها القواعد. ولا شك أن ذلك لو حدث لكان خطأ منهجيًا لايغتفر!

ويظن الكثيرون أن اللغة العربية الفصحى كانت محصورة فى شبه الجزيرة وما تاخمه فى الشمال من إقليمى المناذرة والغساسنة، وأن العرب لم يكونا قبل الإسلام يخالطون غيرهم من الأمم، وأن صلة الفرس والسريان والنبط والروم بالعرب صلة لم يأت بها إلا الفتح الإسلامى، ومن ثم ظلت اللغة العربية الفصحى قبل الإسلام مبرأة من نفوذ جاراتها، لا تتأثر بهن ولا تؤثر فيهن، وأن العربى قبل الإسلام كان ينطق الفصيح ولا يعلك كلمة أجنبية مهما كانت الظروف؛ ولكن العربى فيما بعد الإسلام «لان جلده»، على حد تعبير أبى عمرو فى مخاطبة أبى خيره[1] وهذا خطأ لا شك فيه. وإن وجود بعض الكلمات ذات الأصل الرومى أو الفارسى فى القرآن نفسه لدليل على أن هذه الكلمات قد دخلت لغة العرب قبل الإسلام بمدة كانت كافية لصيرورتها كلمات عربية تستحق شرف الورود فى صلب نص دينى عربى معجز كالقرآن الكريم. ثم هو دليل كذلك على أن التأثير والتأثر عمليتان قديمتان فى علاقة اللغات بعضها ببعض، وأن ما تجربه اللغة العربية الآن من تعرض لنفوذ اللغات الأجنبية لا يستحق كل هذا الجزع من جانب أحبار اللغة، لأنه ظاهرة إجتماعية لغوية جربتها العربية فى الجاهلية والإسلام، ولا تزال تجربها حتى اليوم. وهذا دليل أيضًا على أن اللحن فى صدر الإسلام، إن دفع إلى بدء دراسة اللغة التى ورد بها القرآن فما كان ينبغى أن يتعدى ذلك إلى أن يكون دافعًا على تمجيد حالة اللغة العربية التى كانت عليها تمجيدًا

(١) الخصائص لابن جنى ج ١ ص ٤١٣.

زاده سوءًا ما جربه العرب فى العصر التركى من جهل وانصراف عن البحث العلمى، حتى شهدت الأيام الأولى من نهضتنا العلمية أناسًا ذوى آراء غريبة فى اللغة، يرون من صالحها أن تظل متحجرة لا تقبل التطور. وقد عادت آراؤهم هذه على دراسة اللغة العربية وعلى هيبة أهل اللغة بأوخم العواقب.

إذًا فقد كان العربى دائما ولا يزال يتعلم لغة أسرته طفلا، ثم ينمو ويضرب فى أرض الله، ويخالط قومًا على غير لهجته أو على غير لغته، فيؤثر فيهم ويتأثر بهم، ثم يعود إلى أهله وقد عدل من عاداته اللغوية، فيؤثر فيهم حينًا، ويصحح نطقه بصحبتهم حينًا آخر.

«فإن الأعرابى إذا قويت فصاحته وسمت طبيعته تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله به. فقد حكى عن رؤية وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظا لم يسمعاها ولا سبقا إليها»(١).

ولم تكن الموجة التى سموها شيوع اللحن فى صدر الإسلام إلا واحدة من هذه الموجات التى التقى العرب فيها بالمتكلمين بلغات أجنبية، وأغلب الظن أن هذه الموجة لو لم تدفع العرب إلى دراسة اللغة فى ذلك العصر لكانت اللغة العربية التى ندرسها الآن على صورة أخرى أحدث عهدًا فى التاريخ، ولكانت مصادر قواعدها أشعارًا يمنعون الآن الاحتجاج بها فى النحو واللغة؛ بل لربما صح الاحتجاج بشعر البارودى وشوقى وحافظ وغيرهم، على نحو ما يفعل الغربيون من الاحتجاج بلغة المعاصرين من أهل الأدب من بينهم(٢).

ولكن بعض علماء اللغة العربية يصور الأمور فى صورة ملحمة جبارة يشتبك فيها العرب بالأجانب، وقد نسبوا للعرب من صدق الطبع فى العروبة ما كان يجعلهم يعجزون حتى عن ترديد الكلمة التى أرادوا أن ينطقوها نطقًا مغايرًا للصواب.

«أخبرنا أبو اسحق ابراهيم بن أحمد القرميسينى، عن أبى بكر محمد بن هارون الروياني، عن أبى حاتم سهل بن محمد السجسانى فى كتابه الكبير فى القراءات، قال قرأ علىَّ أعرابى بالحرم «طيبى لهم وحسن مآب»، فقلت له طوبى، فقال طيبى،

(١) الخصائص لابن جنى جـ ١ ص ٤٢٤.

(٢) اقرأ قاموس أو كسفورد الكبير وسترى احتجاجات بأقوال المعاصرين لجمع مادته.

فأعدت، فقلت طوبى، فقال طيبى، فقلت طوطو، قال طى طى. أفلا ترى إلى هذا الأعرابى وأنت تعتقده جافيا كزالا دمثا ولا طيعا، كيف نبا طبعه عن ثقل الواو إلى الياء، فلم يؤثر فيه التلقين، ولا ثنى طبعه عن التماس الخفة هز ولا تمرين؟ وما ظنك به إذا خلى مع سومه، وتساند إلى سليقته ونجره![1] فأنت ترى أن السليقة فى رأى ابن جنى قد منعت الأعرابى من نطق كلمة فى القرآن كما هى! وإن ابن جنى ليشيد بهذه السليقة برغم هذه الحقيقة التى فى الخبر. فما هى تلك السليقة المدهشة؟ وأى نوع من السحر هى بل فى أى قسم تقع من أقسام البطولات؟.

إن العلماء يختلفون فى معناها بين الطبع والاكتساب؛ وإن كان القائلون بالطبع فيها كثرة. وقد مر بنا الاقتباس الذى أخذناه من خصائص ابن جنى عن الأعرابى الذى لم يستطع أن يحول الخطأ الذى فى طيبى إلى الصواب الذى فى طوبى. ويمكن أن نضيف الاقتباسات الآتية من كتاب يرون أن الغريزة طبع:

١- قال عمار الكلبى :

ماذا لقينا من المستعر بين ومن ... قياس نحوهم هذا الذى ابتدعوا
إن قلت قافيه بكرا يكون بها ... بيت خلاف الذى قاسوه أو ذرعوا
قالوا لحنت وهذا ليس منتصبا ... وذاك خفض وهذا ليس يرتفع
وحرضوا بين عبد الله من حمق ... وبين زيد فطال الضرب والوجع
كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم ... وبين قوم على إعرابهم طبعوا
ما كل قولى مشروحا لكم فخذوا ... ماتعرفون وما لم تعرفوا فدعوا
لأن أرضى أرض لاتشب بها ... نار المجوس ولا تبنى بها البيع

٢- يقول السيوطى[2]: «وإنما مكنت القول فى هذا الموضع ليقوى فى نفسك قوة حِس هؤلاء القوم، وأنهم قد يلاحظون بالمنة والطباع مالا نلاحظه نحن على طول المباحثة والسماع».

---

(١) الخصائص ص ٧٧ - ٧٨.

(٢) المزهر جـ ٢ ص ٣٠٩.

٣- يقول صاحب القاموس فى مادة «سلق»: ويتكلم بالسليقه أى عن طبعه لا عن تعلم».

٤- يقول ابن فارس[١]: «وكانت قريش مع فصاحتها، وحسن لغاتها، ورقة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التى طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب».

٥- ويقول إبراهيم مصطفى[٢]: «وتأليف الكلمات فى كل لغة يجرى على نظام خاص بها، لاتكون العبارات مفهمة ولا مصورة لما يراد حتى تجرى عليه ولاتزيغ عنه.

والقوانين التى تمثل هذا النظام وتحدده تستقر فى نفوس المتكلمين وملكاتهم، وعنها يصدر الكلام. فإذا كُشِفَتْ ووصفت ودوّنت فهى علم النحو».

ويقول الدكتور ابراهيم أنيس[٣]: «ولا يعقل أن صاحب السليقة اللغوية يخطئ، إلا إذا نطق بلغة خاصة يتمسك فيها بقواعد وأصول لا تراعى فى حياته العادية، حين ينطلق على سجينه».

ويرى القارئ أن الشاعر فى أول هذه الاقتباسات يرى أنه مطبوع على الإعراب، فلو أراد أن ينطق بما يعارضه لما استطاع إلى ذلك سبيلا، مثله فى ذلك مثل الذى جبل على أن يفرز جسمه العرق، فلو أراد أو أراده إنسان أن يفرز من مسامه عطرا ما استطاع إلى ذلك سبيلا، لأن الطبع يغلب التطبع كما يقولون. فالعربى يعرب لأنه عربى، لا لأنه اكتسب لغة العرب. وليت هذا كان يعدّ من مبالغات الشعراء، وقد كان يمكن أن بعد مبالغة شعرية لو أن علماء اللغة لم يؤيدوه فيما ذهبوا إليه.

فالسيوطى يرى أن العرب فى كلامهم يلاحظون بالمنة والطبع مالا نلاحظه نحن بطول المباحثة والسماع. فهم يلاحظون رفع الفاعل ونصب المفعول، وإعراب المضارع وبناء الماضى، واتباع الوصف والعطف والتوكيد والبدل، وهلم جرا. وتلك أمور تقتضى متعلم العربية أن ينتبه إليها، إذا أراد أن يكون كلامه صحيحا من الناحية

(١) الصاحبى ص ٢٣.

(٢) أحياء النحو ص ٢.

(٣) اللهجات العربية ص ٧٤ ـ ٧٥.

النحوية. وصاحب القاموس لا يكتفى بإثبات الطبع، وإنما يقوّى هذا الإنبات بنفى التعلم، وهو يشمل اكتساب اللغة فى الصغر والكبر على حد سواء. ولا شك أن الناشئ العربى فى كل قبيلة كان كما يقرر ابن فارس يأخذ اللغة تعودا أى تعلما واكتسابا. ولكن ابن فارس لم يحافظ على نقاء هذا الرأى فى نفسه، فرأيناه يصف قريشا بقوله: «فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التى طبعوا عليها». وما كان أجدر ابن فارس بالبقاء على الرأي الأول الذى نقله عنه السيوطى وآخرون.

وقد رأينا أن أستاذين معاصرين من ذوى البصر باللغة قد انحازوا إلى جانب الطبع، فأما الأستاذ إبراهيم مصطفى ففى كلامه عن النظام النحوى للغة رأى أن هذا النظام. يستقر فى نفوس المتكلمين وملكاتهم؛ وإن كلامه هذا وإن لم يركن صراحة إلى القول بالطبع ليبدو فى استعمال كلمة الملكة والنفس فيه من الغموض ما لم يجعلنى أطمئن اطمئنانا تاما إلى سلكه فى عداد القائلين بالاكتساب. ولذا رأيت أن أضعه بين القائلين بالطبع، وأنبه إلى موقفى منه. وأما الدكتور أنيس فيرى من غير المعقول أن يخطئ صاحب السليقة اللغوية. وإننى بعد أن نشأت على التكلم بلهجة بلدى بالصعيد وبعد أن بقيت فى بلدى هذا حتى الثانية عشرة من عمرى جئت إلى القاهرة فأقمت فيها، وكنت أعود إلى بلدى فى فترة محددة من صيف كل عام، تجعلنى استعيد اللهجة أقف فى كلامى وسطا بين لهجة القاهرة ولهجة الكرنك، يخطئنى المتكلمون بكلتيهما فى بعض الأصوات والتراكيب والتعبيرات. فإذا صح أن صاحب السليقة لا يخطئ، فإننى غير صاحب سليقة، لافى القاهرة ولا فى الكرنك، إلا إذا كان لكل امرىء سليقته الخاصة، وتلك مسألة أخرى على أى حال.

ولقد سبق أن قدمنا اقتباسات تقول إن اللغة تكتسب، وكانت هذه الاقتباسات لكتاب أمريكيين وبريطانيين وعرب، ونحب أن نضيف اقتباسا من ابن جنى[1] الذى يقول: «وكذلك أيضا لو فشا فى أهل الوبر ما شاع فى لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها، وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها، لوجب رفض لغتها، وترك تلقّى ما يرد عنها، وعلى ذلك العمل فى يومنا هذا لأنا لا نكاد نرى بدويا فصيحا».

(١) الخصائص جـ ١ ص ٤٠٥.

فالفصاحه عند ابن جنى عادة لا أكثر ولا أقل، أى أن السليقة اكتساب وتعود، ولو أنها كانت فى نظره طبعا أو سجية أو نحيزة كما كانوا يقولون لما جعل ابن جنى فى أبواب خصائصه بابا عنرانه كما يلى: «باب فى العربى الفصيح ينتقل لسانه»[1]. والانتقال فى نظره إما أن يكون إلى لغة أخرى فصيحة أو فاسدة؛ فإذا كان الانتقال إلى لغة فصيحة جرى الاحتجاج بكلامه بها، وإن كان إلى لغة فاسدة لم يحتج بكلامه.

والذى لا جدال فيه أن اللحن كان معروفا قبل الإسلام وفى وقت ظهوره، وأنه كان جائزًا حتى من سادة العرب وأشرافهم. ففى الجزء الأول من الجامع الصحيح للسيوطى أن النبى ﷺ قال: «أنا أعرب العرب: ولدتنى قريش ونشأت فى سعد بن بكر، فأنَى يأتينى اللحن؟»[2] وإن نفى اللحن عنه ﷺ ليتضمن أن اللحن كان ظاهرة معروفة حينئذ، وأن بعض سادة العرب كانوا يلحنون، ولذلك رأى عليه السلام أن ينص على أنه غير هؤلاء الذين يصدر اللحن منهم. وقد لحن رجل فى حضرته عليه الصلاة والسلام، فقال ﷺ لمن حوله: «أرشدوا أخاكم فقد ضل». وإن شعراء العربية كانوا موضع اتهام فى الجاهلية والإسلام، فقصة بيت النابغة الذبيانى الذى بدا فيه الإقواء قصة شهيرة، وقد أوردنا قصة الفرزدق وابن أبى أسحق. ويقول ابن فارس[3]: «وما جعل الله الشعراء معصومين يوقون الخطأ والغلط، فما صح من شعرهم فمقبول، وما أبته العربية وأصولها فمردود، بلى للشاعر إذا لم يطَّرد له الذى يريده فى وزن شعره أن يأتى بما يقوم مقامه بسطا واختصارًا وإبدالا، بعد أن لا يكون فيما يأتيه مخطئا أو لاحنا»: وكان عبد الملك يقول: «شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن». وقد عابوا على مالك بن أنس فى مخاطبة العامة: «مطرنا البارحة مطرًا أىّ مطرًا». وكان الحجاج يقول ليحى بن بعمر النحوى: «أترانى ألحن؟».

والذى لا جدال فيه أيضا أن النبى ﷺ، وصحابته، وتابعيهم إلى نهاية العصر الأموى، والذين جاء وامن قبلهم من شعراء الجاهلية، كل هؤلاء يحتج بكلامهم،

---

(١) الخصائص جـ ١ ص ٤٢١.

(٢) ص ٣ من كتاب سيبوية إمام النحاة للأستاذ على النجدى ويقول إن الرأى فى الحديث مختلف.

(٣) الصاحبى ص ٢٣١.

ويمكن أن يكون كلامهم من المادة التى تستخرج منها قواعد اللغة. فإذا كان اللحن جائزًا على كل من عدا النبى فى هذه الأيام، فإن أخذ كلامهم حجة فى اللغة أمر يتطلب شيئا من الحيطة والاحتراس. وإن رجلا كالمرحوم الشيخ محمد عبد المطلب معروفا بحفاظه على اللغة ووفائه لها ليكون فى ظروف كالتى شرحناها أهلا لأن يستشهد بشعره كالشعراء الأقدمين، فالربط بين الأخذ وبين العصر يبدو فى نظرى كالربط بينه وبين الشخص مع انتفاء المعاصرة، ما دام هذا الشخص يلتزم بالمستوى الصوابى للمرحلة موضوع الدراسة. وما كان أولى الدراسات اللغوية العربية أن يقتصر أخذها على القرآن والحديث، وأن تعتبر دراسة القواعد فيهما دراسة لمرحلة معينة من تطور هذه اللغة، ثم يطلق اللغويون سراح اللغة تتطور بعد ذلك كما تشاء، وتسجل كل مرحلة من مراحل تطورها بدراسة صرفية ونحوية وصوتية ومعجمية شبيهة بالدراسة الأولى التى اقتصرت على القرآن والحديث.

إن هذا كان يكفل لنا فائدتين لا غنى لنا عن أحداهما.

١- معرفة تامة بلغة القرآن والحديث اللذين يمثلان لهجة يعينها من لهجات العربية، وبذلك كنا نجد دراسة النحو العربى متجانسة لا أمشاجا ملفقة.

فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة مشكلة الألوان مختلفات

٢- الاعتراف بوجود اللهجات العربية التى عاشت إلى جانب هذه اللهجة أو لحقتها فى الزمن، وبذلك تدرس كل واحدة منها على حدة من جميع نواحيها، ونضمن بذلك سلامة المنهج ونضج الدراسة ونفع المتعلم من أيسر سبيل. ومعنى ذلك أيضا ألا تتحجر اللغة عند مرحلة معينة، بل تظل اللغة العربية المشتركة تتطور بتطور الزمن والعرب. وذلك ما فطنّا إليه أخيرا بعد أن ضاع منا وقت ثمين لم نقم فيه بدراسة تطور هذه اللغة.

ولكن هذا لم يحدث، وإن الذى حدث لم يكن هو اقتصار اللغويين على نصوص القرآن والحديث، وإنما هو تعديهم إياهما إلى اختيار لهجات قبائل معينة حددتها عوامل جغرافية خاصة أهمها قرب هذه القبائل إلى البصرة، وسهولة الرحلة إليها والرجوع منها على الرواة وأصحاب الأخبار واللغة. «والذين عنهم نقلت العربية، وبهم اقتدى، وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد،

فإن هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل فى الغريب، وفى الإعراب والتصريف. ثم هذيل وبعض الطائيين؛ ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم»[1].

فما الفكرة المنهجية التى حدت باللغويين إلى تخصيص هذه القبائل دون غيرها، وجمعها بين القرآن والحديث وما سموه لغة قريش فى دراسة واحدة غير متجانسة تفرض القواعد على اللهجات، فما وافقها منها قبل، وما لم يوافقها كان شاذا أو سماعيا لايقاس عليه، أو غريبا أو قليلا أو نحو ذلك؟ إن الذى نشاهده أنهم يصفون بعض قراءات القرآن بالشذوذ، بل يصفون بذلك بعض التراكيب من القراءات المقبولة.

أغلب الظن أن النحاة حين وجدوا الفصحى لغة مشتركة بين قبائل العرب لم يتضح الفرق فى نظرهم بين هذه اللغة الأدبية المشتركة وبين ما تكلمت به القبائل العربية من لهجات قبلية، كلهجة قريش، ولهجة طيئ، ولهجة بنى تميم، وهلم جرا. ومن ثم لم يقصروا دراستهم على هذه اللغة المشتركة التى قلنا إن خير ممثل لها هو القرآن والحديث، والشعر الفصيح الجدى الذى يعلّق على الكعبة، أو يقال فى مجامع العرب، أو يقصد به الملوك. فأما شعر الترقيص أو الوصايا التى تزجى إلى الأبناء أو الأتباع، وأما كلام الأعرابى أو الأعرابية إلى بنتها أو ولدها أو إلى عابر سبيل يحدث بالصدفة أو يكون راوية من رواة اللغة، فلا أظن أن الضرورة كانت تدعو إلى صوغه دائما فى قالب اللغة الفصحى المشتركة بين العرب، وإنما يغلب ظنى أن يكون بعض هذا النوع من النصوص مصوغا فى قوالب اللهجات المحلية للقبائل. فلا غرابة حينئذ أن يصادف الباحث اللغوى فيه مالا يتفق مع لغة القرآن والحديث والأدب الجدِّى، ولا غرابة كذلك فى حيرة الباحث اللغوى فيما يفعله ازاء هذا الإختلاف الواضح فى قوانين الصياغة، فيخضع طائفة من النصوص لقواعد الطائفة الأخرى، ويمزق شمل الطائفة الأولى بين الشذوذ والقلة والاقتصار على السماع وهلم جرا.

وليس ببعيد أن يكون الأعراب الضاربون فى الصحارى التى طرقها الرواة قد فطنوا إلى ضالة هؤلاء الناس، وإلى أنهم يجرون وراء غريب اللغة أو غريب التراكيب،

(١) الإقتراح للسيوطى ص ١٩ والمذهر له أيضًا ص ١٢٨ نقلا عن الألفاظ والحروف لابى انصر الفارابى فيهما.

ويحسنون إلى من ينيلهم هذا المطلب. وليس ببعد كذلك أن بعض الأعراب قد اتخذ من التجارة بالغريب وسيلة للرزق ليس من صالحه أن تفنى. فإذا ما نضب معين ما عنده من اللغه عمد إلى الاختراع وبالغ فى ذلك، ولا سيما حين فطن إلى سرور الرواة بما يقول واحتفالهم به.

ولكن «بالرغم من أن اللغة تؤدى وظيفة القوة الموحّدة التى تصبغ أصحابها بالصبغة الاجتماعية نجدها فى نفس الوقت أقوى عامل منفرد لتقوية الفردية. فالقيمة الأساسية لصوت المتكلم، والنماذج الصوتية فى كلامه، وسرعة نطقه وسهولته النسبية، ثم طوال الجمل وتركيبها، وخصائص حصيلة مفرداته واتساعها، ودقة اختياره لكلماته، وسرعة استحضار هذه الكلمات المختارة للاستجابة لمقتضيات البيئة الاجتماعية، ولا سيما مناسبة لغة المتكلم للعادات اللغوية للمخاطبين، كل أولئك دلالات معقدة على الشخصية»[1].

فإذا كان الأمر كذلك فإن بعض ما يقض مضاجع الطلبة من خلافات فى النحو والصرف فى أيامنا هذه يستحق أن يعاد النظر فيه، وأن يرجع إلى النصوص الأولى التى استقيت من القواعد المتضاربة فى المسائل الخلافية، ومسائل الشذوذ والسماع.

على أن الرواة واللغويين أنفسهم لم يكونوا فى بعض الأحيان فوق مستوى الشبهات. فقد كان الرواة يأخذون من كلام الأعراب ما وافق هدفهم، ويتركون منه مالا يعجب به الناس فى الحاضرة، ولا ينفع اللغويين، أو لا يحفل به اللغويون، لبعده عما قعّدوه من قواعد. قال الأصمعى:[2] أصابت الأرض مجاعة، فلقيت رجلا منهم خارجا من الصحراء، كأنه جذع محترق، فقلت له أتقرأ شيئا من كتاب الله؟ قال لا. قلت فأعلّمك؟ قال: ماشئت. قلت اقرأ (قل يا أيها الكافرون) قال (كل[3] يا أيها الكافرون) قلت (قل يا أيها الكافرون) كما أقول لك. قال ما أجد لسانى ينطلق بذلك. ولست بموضع يسمح لى بمناقشة الصنعة فى هذا الخبر، ولكننى أحب أن أشير إلى أن نطق القاف كالكاف مع جهرها على نحو ما تنطق فى الصعيد والمغرب والسودان والعراق وشبه الجزيرة كان شائعا فى هذه القبائل التى أخذ النحاة عنها،

(1) Selected Writings of Edward Sapir, p. 71.

(٢) العقد الفريد ح ٣ ص ٤٧٦.

(٣) نطق لفظ «كل» بقاف تشبه صوت «g».

ولكنهم تركوا تسجيله كظاهرة، لأنهم عنوا بأن يختاروا من لهجات هذه القبائل ما يكون مشتركا بينها وبين اللغة المشتركة الأدبية.

ثم يقول بعد الذى تقدّم: «ورأيت أعرابيا ومعه بنىّ له صغير مُسك بفم قربة وقد خاف أن تغلبة القربة؛ فصاح يا أبت! أدرك فاها، غلبنى فوها، لا طاقة لى بفيها». ولست أشك فى أن هذا الخبر مختلق. بل إن هذا النص الذى نطق به الغلام كما يرويه الأصمعى أو من ألصق به هذا الخبر ليبدو كأنه منتزع من صفحة من صفحات كتب القواعد تتكلم عن إعراب الأسماء الخمسة. فالمسألة إذاً ليست مسألة موقف اجتماعى يسجل كما هو، وتأتى النصوص فيه جزءا من هذا الموقف، لا بل إن النص والخبر هنا يخلقان الموقف المصطنع الذى يدور الكلام فيه حول إعراب كلمة بعينها، ولا يبدو لنا نصا لغويا ذا عنصر اجتماعى واضح.

والحقيقة أن النحاة العرب لو فطنوا إلى مراعاة العنصر الاجتماعى فى اللغة لما تورطوا فى أمور مثل.

١ ـ القول بعدم جواز أن نصوغ نحن الكلمات الجديدة قياساً على ماقاله الأقدمون. ومعنى ذلك الوقوف باللغة عند مرحلة معينة لا تتطور بعدها. وقد أشرنا من قبل إلى الاقتباس المأخوذ من ص ٣٣ من كتاب الصاحبى لابن فارس وهو يقول بمنع مثل هذا القياس.

٢ ـ القول بأن السليقة طبع لا اكتساب ناتج عن الاحتكاك بين الفرد وبين بيئته. والفرد بمقتضى القول بالطبع مسير فى اللجوء إلى الصواب دون الخطأ، وليس مخيراً فى أن يتعمد الخطأ فى اللغة لو أراده، لأن لسانه سيرتد إلى الصواب، سواء أرضى هو أم سخط. وكلنا يذكر قصة مناظرة سيبويه والكسائى فى مسألة العقرب والزنبور، وموقف الأعراب من إرادة الخطأ وعدم القدرة عليه.

٣ ـ الدخول فى الاعتماد التام على التمارين العقلية، وخلق الأمثلة على القواعد حين لا توجد الشواهد، كما حدث فى باب التنازع[1]؛ ومنها «أعلمت وأعلمونيهم إياهم الزيدين العمرين منطلقين». ولست أدرى إن كان العرب الأولون يعترفون

(١) انظر الرد على النحاة ص ١٠٩ ـ ١١٣.

بعروبة هذه الجملة عند سماعها أولا. غير أن الذى يبدو لى أن هذه الجملة لو قيلت فى حجرة مظلمة أربعين مرة لحضر كل شمهورش فى العالم، كما قال أستاذنا المرحوم محمد هاشم عطية حين كان ينقد بيتاً من الشعر.

والحق أن العنصر الاجتماعى لا يمكن تجاهله فى اللغة مادمنا نعترف بوجود أسلوب خاص بكل متكلم، وبجواز الارتجال فى اللغة، والاحتجاج بأقوال الأفراد، سواء أكانوا شعراء أم خطباء أم حكماء أم غير ذلك، لأن الاعتراف بكل أولئك اعتراف بما يسمى شخصية المتكلم، ويستتبع الاعتراف بهذه الشخصية اعترافا آخر بالتطور فى اللغة.

والشخصية على ما يبدو ذات جانبين متكاملين، يرجع أحدهما إلى الميلاد والوراثة والطبع، ويرجع ثانيهما إلى التربية والإرادة والتطبع. فإذا ارتضينا المعنى الذى نفضله فى هذا الكتاب لكلمة السليقة (وذلك أنها يقصد بها الاكتساب والتعود حتى يصبح النطق شبه آلى) صح أن نقول إن الشخصية ترجع فى بعضها إلى الخليقة، وفى بعضها الآخر إلى السليقة. أما من ناحية الخليقة فإن «الوراثة الطبيعية، توجد النشاط العضوى أو تكامله عن طريق الجهاز العصبى والغدد الصماء، كل ذلك ذو صلة وثيقة بالشخصية، ومن أهم العوامل هنا الجنس. وإن الأدوار الاجتماعية فى معظم المجتمعات ليتبين فيها طابع التمييز الجنسى.

وأما من ناحية السليقة فيقصد بها اكتساب لغة المجتمع الذى ينشأ فيه المرء، «ونحن نخلط بين آثار الخليقة وآثار السليقة بأقوى سحر معروف وذلك هو الكلام».

قال جان جاك روسو: «يولد الإنسان حراً ولكنه أسير القيود فى كل مكان من العالم» وإذا كان جاك جاك روسو قد أطلق هذه الجملة فى معرض الدفاع عن الحريات السياسية، فإن أستاذنا فيرث يطبقها كذلك على تأثير الفرد فى اللغة، بواسطة الظروف التى تحد من حريته، والروابط الاجتماعية التى لا يستطيع معها أن يحتفظ بنعمة الحرية الفردية المطلقة، كالأسرة والجوار والطبقة والمهنة والوطن والدين، وكلها

(1) Firth, Pesonality and Language in Society, The Sociological Review, Journal of the Institute of Sociology Vol XI. II, Sec. Two, 1950.

لا يقوم إلا على نسج متشابك من الكلام واللغة، وكلها نواح من مظاهر الحياة الاجتماعية التى لا يمكن أن تنضج شخصية الفرد إلا بها. ومن غير المتصور ولا المعقول أن نصف إنسانا بأن له شخصية إذا كان يعيش فريداً منعزلا فى غير مجتمع.

وفى النشاط اللغوى عنصران: أحدهما شخصى، والآخر غير شخصى. ولننظر فى العنصر غير الشخصى أولا، ثم نرجع بعد ذلك إلى العنصر الشخصى. أما غير الشخصى من هذين العنصرين، فهو ما يمكن أن يسمى نوعياً أو Typologicul وذلك ما يعتبر من أمور الشركة بين أفراد المجتمع اللغوى فى أثناء نشاطهم اللغوى، كالنظام الصوتى والصرفى والنحوى للغة. ولقد كشف بالدراسة عن نظم بعض اللغات، ولكن طائفة كبيرة من لغات البشر لا تزال محفوظة فى الأجهزة العصبية لأفراد المجتمعات التى تتكلم هذه اللغات، يسلكون سلوكهم اليومى بحسبها عن طريق التعود، أى الاكتساب، أى السليقة، ولكنهم لا يستطيعون الكشف عنها إلا إذا تصدوا لها بمناهج دراسية محددة معينة. ذلك هو العنصر النوعى غير الشخصى من النشاط اللغوى.

ومن مراعاة العنصر الشخصى فى اللغة، والاعتراف بشخصية الفرد فيها ما يحتمه المنهج اللغوى عند دراسة لههجة معينة من الاقتصار على فرد واحد يسمى مساعد البحث؛ وإن هذا الفرد ليعتبر نموذجا للهجة، يمكن للباحث أن يجد فيه كل ما يتطلبه من دراستها، موضوعا فى إطار شخصية معينة، لها وحدة النظام الصوتى والصرفى والنحوى، ولها أسلوب بعينه، وتركيب عضوى وعصبى واحد، ثم لها ميولها واتجاهاتها الموحدة. ومن هنا أيضاً نجد الخطأ المنهجى الذى وقع فيه النحاة القدماء حيث لم يقتصر كل واحد منهم على فرد بعينه من قبيلة بعينها وإنما عمدوا إلى دراسة لهجات كثيرة سُمع كل منها من أفواه كثيرة فى نفس الوقت فضاعت الفِكرة الشخصية ومن ثم الاجتماعية فى اللغة.

ومن قبيل مراعاة عنصر الشخصية أيضًا ما يقوم به المراقبون اللغويون من ملاحظة السلوك اللغوى للطفل، واعتبار تطوره فى هذه الناحية شبيهًا بتطور المجتمع البدائى فى اكتساب اللغة. ويرجع معظم العلماء التطور فى أية لغة من اللغات إلى أن الأطفال فى كل جيل جديد ينحرفون بنطق اللغة واستعمالها انحرافا لا يظهر خطره وقتئذ،

لضآلته؛ ولكن عددًا من الأجيال ينتج من الانحراف مالا يمكن تجاهله من الباحث. ويقال عندئذ إن اللغة الفلانية قد تطورت على النحو الفلانى.

ومن أوضح عناصر المؤثرات الشخصية فى اللغة أن لكل متكلم باللغة أو كاتب أو شاعر فيها أسلوبه الخاص. وإذا عرفنا أن الأسلوب كما يقول النقاد دائما ذاتى وغير موضوعى، أمكن أن نضيف إيضاحًا جديدًا إلى أن فى اللغة ماهو شخصى وما هو نوعى، فالمتكلم حين يتكلم، والكاتب حين يكتب، والشاعر حين ينظم، كل أولئك يتناول ما أورثه إياه الاستعمال من أمور نوعية شرحناها من قبل، فيتخذها منوالا ينسج عليه نسيجًا من شخصيته سداه ولحمته، وبهذا يكون القالب نوعيًا والإنتاج شخصيًا.

ومن ذلك دراسة العيوب النطقية، والأمراض العصبية المتصلة باللغة؛ وقد يقول قائل: ماللتطور اللغوى أو ما للشخصية وأثرها فى اللغة وللعيوب النطقية" والرد هنا واضح: إن اللغة مما يتعلمه الناس بالمحاكاة، والناس مولعون بالتقليد، ولاسيما تقليد ذوى النفوذ أو الهيبة أو السلطان وإذا علمنا أن الأجنبى الفاتح قد يترك شيئًا من عاداته النطقية فى البلد المفتوح، كما فعل الأتراك فى الظاء العربية، استطعنا أن نقدر خطر العيب النطقى الذى يوجد فى صاحب النفوذ على تطور اللغة. كان سعد زغلول رحمه الله ينطق القاف كافا مفخمة جدًا؛ ويروى أنه كان يخطب الناس ذات يوم، فقال: «كنت أود أن أتكلم إليكم مدة طويلة، ولكننى أحس تعبًا شديدًا، وأشعر بقلبى ينبض نبضًا قويًا لا عهد لى به». وهنا انبرى من بين السامعين من هتف: يحيا كلب الرئيس! فلو أن الناس فى حبهم لشخصية سعد زغلول قلدوه فى نطق القاف، لأصبح ذلك تطورًا فى اللغة.

أضف إلى ذلك أن الصواب اللغوى من مقومات الشخصية المتوازنة التى يحتمل أن تؤثر فى اللغة «وإن شخصية الفرد الذى يحتاج إلى تصحيح كلامه قد تصبح فى جملتها أحيانا بحاجة إلى إعادة بنائها»[1]. لما يسببه النقد الاجتماعى من تهديم هذه الشخصية:

وفى دراسة الماجريات العامة عند تحليل أى نطق لغوى نرى من الضرورى أن يجرى وصف شامل لكل ماله علاقة بالآثار التى تركها النطق فى نفوس السامعين،

(1) West, Kenedy & Carr, The Rehabclitation of Speech, p. 279.

وثم يصبح من الضرورى أن نتعرض لشخصية المتكلم، بل والسامعين أحيانا. فالعنصر الشخصى فى دراسة الماجريات Contex of situation لا يمكن الاستغناء عنه إذا كان المراد هو التحليل الدقيق للنص، بحيث يوصل من تحليله إلى المعنى الإجتماعى التام، الذى لا يقتصر على العنصر المعجمى فحسب من عناصر المعنى.

والأدوار التى يؤديها الفرد على مسرح الحياة الاجتماعية تحتم استعمال لغة خاصة لكل دور، فاللغة التى يستعملها المرء وهو يؤدى دور الأبوة غير التى يستعملها فى دور الزوج، أو العضو فى النادى، أو الموظف المرؤوس، أو الرئيس، أو المصلى فى أحد المساجد، أو ذى النشاط السياسى المعين، أو البائع، أو الشارى، أو لاعب الشطرنج، أو الذى يستميل الناس للقيام بعمل اجتماعى معين. كل أولئك أدوار ذات تخصص فيما يستعمل فيها من اللغة؛ وتتأثر اللغة بشخصية الفرد فى كل دور من هذه الأدوار. إن الذئ يستشهد بآية من القرآن فى خطبة ليقرؤها بطريقة غير الطريقة التى يقرؤها بها للتعبد دون الجهر من القول، أو للتطريب على طريقة القراء. فللآية الواحدة من آيات القرآن استعمالات مختلفة، يتطلب كل منها طريقة أداء خاصة؛ لأن شخصية الخطيب غير شخصية المتعبد أو المقرئ. وهنا نلحظ مايسميه البلاغيون مقتضى الحال. غير أن البلاغيين كانوا يتكلمون عن «حالات» لا عن شخصيات. والكلام عن الحالات إنكار واضح للعنصر الاجتماعى الذى يعترف بالتطور لا بالحالة الثابتة.

إن الملك إذا خلا إلى خاصته قال «أنا»، وإذا خاطب الشعب فى مرسوم تغيرت لغته بتغير الشخصية التى يؤديها فقال «نحن»، ولكنه إذا خلا إلى محظية فى حريمه فربما وصل التدهور فى شخصيته إلى أن يقول «عبدك وأسير هواك»، فهذه أدوار يؤديها جلالته، يعلو فيها ويسفل، حتى يصل فى آخرها إلى أن يستغنى عن الضمائر التى تدل على شخصه، بإضافة أحط صفاته إلى ضمير يدل عليها هى. فذلك كذلك نوع من أنواع أثر الشخصية فى اللغة، وكلما تعددت الشخصيات زاد نمو اللغة.

ومن أهم ما يترتب على القول بتأثير الفرد فى نمو اللغة الاعتراف العام بتطور النظام الصوتى والصرفى والنحوى للغة؛ فاللغة فى تطور دائم لا ينقطع وما اختيار مرحلة بعينها من مراحل اللغة للدراسة، وافتراض أن هذه المرحلة ثابتة استاتيكية غير ديناميكية إلا فكرة منهجية خالصة، لا تمثل سلوك اللغة بقدر ما تمثل وسيلة المنهج.

واللغة العربية الفصحى فى ماضيها وحاضرها لغة متطورة، ولاشك أنها تطورت كثيرا فى نظمها المختلفة بين أيام امرئ القيس وبين أيام الشاعر ابن هرمة، أو مسلم بن الوليد، أو فجر العصر العباسى. ولا شك أن تطورها قد كان كما هو الحال فى أيامنا هذه بصورة تعبر عن شدة الصلة بين الفصحى وبين اللهجات العربية المحلية. فكما أن اللغة الفصحى تقرأ الآن فى سوريا بصورة تخالف عن قراءتها فى اليمن من حيث نطق الجيم ونطق الضاء وغير ذلك، فكذلك كانت تقرأ أو تنطلق فى الماضى بعجعجة أو كشكشة أو غير ذلك. وإذا كان السبب فى الاختلاف الحاضر بين قراءتها فى الشام وقراءتها فى اليمن يمكن إرجاعه إلى اختلاف اللهجة العربية المحلية فى الشام من أختها فى اليمن، فالسبب فى الاختلاف الماضى يمكن إرجاعه إلى اختلاف اللهجات العربية فى القبائل المختلفة؛ وكلما تطورت اللهجات العربية تطور نفوذها على نطق الفصحى كذلك والنتيجة أن الفصحى كانت فى الجاهلية وصدر الإسلام عرضة للتطور الدائم الذى لا يتوقف، ومن هنا يتضح السبب فى قولنا بالخطأ المنهجى فى جعل المرحلة المختارة للدراسة واسعة المدى هكذا فى التاريخ، وأنه كان الأولى بالنحاة أن يدرسوا لغة القرآن والحديث، ويعتبروها ممثلة لهذه المرحلة التى ظهرا فيها وكفى.

ومما يتصل اتصالا وثيقًا بتطور اللغة ما كشف العلماء عنه من قوانين صوتية، سواء أكان ذلك فى اللغاتِ الهندية الأوربية أم السامية.

ولقد كان من الأمور التى استولت على خيال اللغويين فى القرن الماضى أن اللغة كالكائنات العضوية، تولد وتنمو وتحيا، وتصيبها أعراض التحلل، ثم تموت. وأنها من ثم تعتبر فردًا فى عائلة لغوية يقرب بعضها من بعض من الناحية الصوتية والصرفية، بل المعجمية أحيانا. وتتشابه اللغتان فى ذلك كما يتشابه الأخوان فى تقاسيم الوجه وملامحه، وتكوين الأعضاء بوجه عام. ولهذا رأينا الباحثين فى اللغة من علماء هذه الفترة يدافعون عن جعل منهج الدراسات اللغوية شبيها بمناهج الدراسات الطبيعية.

«إن المذهب القائل إن اللغة علم طبيعى له قوانين تشبه قوانين الطبيعة ربما اعتبر الآن من غرائب القرن التاسع عشر، ولكن هذا الرأى فى أيامهم كان مقبولا قبولا عامًا: والتلميح الذى لمحه «جونز» فقال: إن السنسكريتية يمكن أن تفسر قوانين التغير

فى اللاتينية والإغريقية، استغله قوم مثل «بوب» و «جريم»، اللذين تعتبر صياغتهما القديرة «للقوانين الصوتية» عاملا أساسيًا فى رسم تلك الخطوط التى تجرى عليها الآن دراسة اللغة بصفة نهائية.

يقول بوب: «إن اللغات يجب أن ينظر إليها باعتبارها أجساما عضوية طبيعية، مكونة طبقًا لقوانين ثابتة. وتتطور كأن لها قاعدة فطرية للحياة، وتموت بالتدريج».

حقيقة أن العلماء الذين تبنو هذا الرأى قبلوه بإعتباره فرضا متيافيزيقيا لا قاعدة لطريقة، ولكنه استقبل بالترحيب والاستحسان فى العالم الخارجى، وأصبح فى النهاية من بديهيات التفكير اليومى، حين جعله «ماكس مولر» موضوعا لأحد كتبه الشائعة اللامعة. وإن المؤسسة الملكية التى أصبحت بعد ذلك دارًا للعلوم الطبيعة قد فتحت أبوابها لماكس مولر. ولقد سحر مستمعيه من الصفوة حتى اعتنقوا مذهبه القائل إن طريقة علم اللغة «يجب أن تكون كالطريقة المتبعة مع كثير من النجاح فى النبات والجيولوجيا والفلك والفروع الأخرى للدراسات الطبيعية»[١].

ولاتزال فكرة العائلة اللغوية سائدة فى الكلام فى الدراسات المقارنة، مع اعتبار كلمة «عائلة» كأنها ترادف كلمة «مجموعة». وقد تستعمل هذه الكلمة الأخيرة أحيانا. أما فى القرن الماضى، فإن الكلمة الأولى كانت تستعمل ولها ظل عضوى من المعنى شبيه بالمعنى الذى تحدده فى الكلام عن الأسرة المترابطة بالدم. يقول ماكس مولر[٢]: «ولهذا كانت أولى الخطوات الكبرى فى التقدم بتقسيم اللغات عن طريق اكتشاف السنسكريتية بصفة رئيسية هى أن العلماء لم يعودوا يقنعون بفكرة العلاقة العامة، بل بدأو فى البحث فى درجات العلاقات التى وضعت كل عضو من مجموعة إلى جانب الآخر، وبعد أن كنا نسمع عن مجرد مجموعات، أصبحنا نسمع الآن ولأول مرة عن عائلات لغوية مرتبة ترتيبا تاما».

وإذا كانت اللغات أجساما عضوية تولد وتحيا وتموت فى نظر هؤلاء العلماء، فقد كان مما ينسجم مع ذلك فى تفكيرهم أنها تتحول من حال الميلاد إلى حالات متلاحقة من النمو، حتى الوصول إلى حالة الموت. وهذا التحول من حال إلى حال هو الذى

---

(١) اللغة فى المجتمع ـ من ملحق عنوانه «تغيرات فى فلسفة اللغة»:

(٢) Lectures on the Science of Language, 1 - 268.

أطلقوا عليه اسم التطور؛ وكان إطلاق هذا الاسم من ناحيتهم تأثرا بنظرية داروين التى كانت تصبغ الجو الثقافى بلونها فى القرن التاسع عشر. ولقد جاءت فكرة التطور هذه بالدراسة التاريخية للغة، فكان من نتائجها دراسة تطور الأصوات، ودراسة تطور الصيغ، ودراسة تطور استخدام الكلمة، ودراسة تطور الدلالة. فأما دراسة تطور الأصوات فقد كانت مسئوله عن أجرأ خطوة خطاها علماء اللغات إلى الآن، وهى صياغة قوانين صوتية تشرح تطور الأصوات فى اللغات المختلفة، وتوجد التقابل بين مجموعات الأصوات فى عدد من اللغات التى تنتمى إلى عائلة واحدة. هذه هى الأصوات التي كان من رأى العلماء أنها برغم اختلاف كل منها فى لغته عن الآخر فى اللغة الأخرى، ترجع إلى أصل واحد فى اللغة القديمة التى ادعوا أنها أصل لكل لغات هذه العائلة. وأما دراسة تطور الصيغ فقد عرف باسم Comparative Grammar أو الجراماطيقا المقارنة؛ وأما دراسة تطور استخدام الكلمة، فقد سمى etymology، وقد استخدم هذا الفرع أوسع استخدام فى قاموس أو كسفورد، وأما دراسة تطور الدلالة فقد سمى بأسماء مختلفة آخرها Semantics.

كان الكشف عن السنسكريتية على يد وليام جونز بداية عهد جديد فى دراسة اللغة دراسة تاريخية فى القرن الماضى، ثم دراسة وصفية فى القرن الحاضر وإن يسبرسن ليشير إلى هذه الحقيقة إذ يقول[1]: «إن أعظم بدعة فى بداية القرن التاسع عشر كانت ظهور وجهة النظر التاريخية». ولقد قدمنا أن وليام جونز قد كشف كذلك عن وجوه الشبه بين السنسكريتية وبين الإغريقية واللاتينية، حتى وصل فى عام ١٧٩٦ إلى القول بأن «اللغة السنسكريتية أيا كان درجة قدمها رائعة البنية، بل هى أكثر كمالا من الإغريقية وغنى من اللاتينية وذوقا وجمالا من كلتيهما ومع هذا يبدو فيها أن سمات القرابة لكل منهما من جهة أصول الكلمات وصيغ النحو أقوى من أن تكون وليدة الصدفة. إنها من القوة لدرجة أن أى عالم فى اللغة لا يمكن أن ينظر فى ثلاثهن دون أن يعتقد أنهن نبعن من أصل واحد، ربما لا يكون الآن موجودا. وثمة أسباب شبيهة بتلك وإن لم تكن فى وجاهتها لفرض أن القوطية والكلتية تنتميان إلى نفس الأصل الذى منه السنسكريتية، وربما أضيفت الفارسية القديمة إلى نفس العائلة»[2].

(1) Language, its Nature, Devlopment & Origin, p. 32.

(2) Ibid, 33 - 4.

إن هذه الملاحظة التى ألقى بها وليام جونز فى حلبة الدراسات اللغوية جذبت انتباه علماء اللغة بعنف إلى التفكير فى هذه اللعبة الجديدة، لعبة مقارنة أصوات لغة بأصوات لغة أخرى، وعقد صلة بين الأصوات، برغم اختلاف لغاتها، وردها جميعا إلى أصل واحد، مع افتراض الطريقة التى جرى بها التغير فى تاريخ الصوت أحيانا، حتى إذا تم لهم قدر كبير من ملاحظة هذه التغيرات، بدأوا فى استقصاء القوانين التى تتحكم فيها، مع الاعتقاد الراسخ بأن «كل إنسان ينفرد بخصائص صوتية، وأن الذى ينطبق على الأفراد ينطبق كذلك على الأسرات والقبائل والشعوب»[1]. وأن الفرد حين ينفرد بنطق خاص يظل من يأتى من بعده يبعد به شيئا فشيئا عن نطق المجموع، حتى يختلف عنه؛ ولكن كل صوت من أصوات هذه اللُّغَيَّة الجديدة ـ وإن اختلف نطقا عن مقابله فى اللغة الأولى ـ يرد فى نفس الأماكن التى يرد فيها مقابله من الكلمة باطراد، كالذى يحدث فى الصور المختلفة التى تنطق بها القاف فى اللهجات العربية. وقد قلنا إن الذى ينطبق على الأفراد ينطبق كذلك على الأسرات والقبائل والشعوب.

«ولقد ظن الناس زمنا أن التغيرات الصوتية تبدأ من الأفراد، وأنها ليست إلا تغيرات فردية جرى تعميمها، وهذا فهم خاطئ نسبيا؛ فليس لأى فرد قدرة على فرض نطق معين على زملائه تنفر منه طبائعهم. وليس ثمة من قوة تستطيع أن تعمم التغيرات الصوتية. فإذا قدر لأى تغير صوتى أن يعم مجتمعا فلابد أن يكون لكل أفراده ميل طبيعى إلى توخى هذا التغيير طواعية واختيارا. أما إذا نسبنا هذا التغير إلى التقليد فذلك أمر خارجى عن مجال النقاش. فإن النطق الشاذلا يأتى لصاحبه بمقلدين، وإنما يجعله مضحكا.

وربما قررنا هنا أن حب الابتداع fashion هو السبب المباشر فى التغيير الصوتى وأن ذلك لا يمكن إنكاره فى بعض الحالات»[2].

وثمة ملامح معينة يمكن العثور عليها فى كل التغيرات الصوتية: أولها أن التغير الصوتى لايمكن أن يتصف بالتعمد، بل إنه يتم بدون وعى، فإن لسان الطفل مثلا يذهب دون وعى منه إلى مكان نطقى أبعد من المخرج العادى أو دونه بقليل، ويظل

(1) Max Muller, Letures on the Science of Language, p. 184.

(2) Vendryes, Langage, 40.

يكرر هذا النطق حتى يتعوده، وهو يظن أنه ينطق كما ينطق أبواه؛ ولكنه برغم اقتناعه هذا يختلف عنهما فى النطق. ولو أن الطفل كان عند بدء التغير واعيا بحدوثه لأصلح خطأه الذى أدى إليه. وثانى هذه الملامح أن التغير الصوتى مطلق لايقتصر على صوت فى كلمة فى اللغة دون كلمة أخرى. وثالثها أنه مطرد، يتخذ شكلا محددا لا يحيد عنه كلما اكتملت ظروف حدوثه «ولايبدو أن أى واحد من هذه التغيرات قد وجد اعتباطا؛ بل إن هذه التغيرات بالعكس من ذلك تنخرط فى نظام موحد من الاختلاقات»[1].

ويذكر العلماء أسبابا معينة لبعض التغيرات الصوتية التى يعرفون تاريخها، وسنحاول هنا أن نورد بعض هذه الأسباب التى تجعل تغيرًا صوتيًا معينًا يحدث مطردًا لا شذوذ فيه. إن الشخص ليتعلم بعد البلوغ لغة أجنبية فيدخل فى نطقه بها بعض عاداته النطقية التى اكتسبها من لغته الأصلية، كما يحدث مثلا من الأجانب الوافدين إلى مصر، حين يتكلمون اللغة العربية المصرية بلكنة. ولكن هؤلاء كما نعلم لا يؤثرون فى عربية مصر، ولايسببون تحولا فى نظامها الصوتى. ولكن الغزو أو التجارة مثلا قد تدعو أهل البلد المغزو أو الذى تحدث فيه التجارة إلى استعمال لغة الغزاة أو لغة التجار الوافدين، جريا وراء التقرب من هؤلاء الغزاة أو التجار، ثم ينسون لغتهم الأصلية، ولا يذكرونها؛ كما حدث للقبط فى مصر، وللآراميين فى سوريا ولبنان، وللنبط فى سواد العراق. ففى هذه الحالة تترك لغة السكان الأصليين المنسية آثارًا صوتية مطردة الورود فى كلام أهلها باللغة الجديدة؛ وتسمى اللغة المنسية linguistic substratum. ولعل اللغات الأصلية فى مصر والشام والعراق قد كان لها أثر فى اختلاف اللهجات العربية فى هذه الأقليم الثلاثة إلى يومنا هذا أكثر من أثر اختلاف اللهجات العربية القديمة نفسها فى ذلك.

وإن الكثيرين من اللغويين لينسبون إطراد التغيرات الصوتية إلى التطور التدريجى المنسجم فى المجتمع اللغوى، كتفضيل صوت بعينه على صوت آخر تفضيلا تدريجيًا لا يحس به المجتمع. فلو أحس به لأخضعه للعادات النطقية العرفية، أو لما يسمونه

(1) Müller, Lectures, p. 173. 4.

مقياس الصواب والخطأ. ولعل تفضيل صوت معين على صوت آخر مما يلتمس سببه فى طبيعة أعضاء النطق فى هذا المجتمع كما يقول هيرمان بول.

وثمة أسباب فجائية للتطور الصوتى، كأن يحدث التغير فى صفة من صفات صوت من أصوات الفونيم، فتتبعه بقية أصوات الفونيم فى هذا التغير، للرغبة فى خلق انسجام فى النطق، وظنًا من المتكلمين أن ذلك تصحيح طبيعى للنطق. ويبدأ ذلك فى كلمة واحدة وعلى لسان واحد، أو فى كلمات متفرقة على ألسنة متعددة ثم يعم المجتمع. وقد يكون تحول الضاد العربية فى النطق من هذا القبيل، وكذلك حلت التاء محل الثاء، وحلت الدال محل الذال.

وبالرغم من معرفة تاريخ بعض التغيرات الصوتية معرفة عامة لا يستطيع الإنسان أن يقول عند أى حد معين بدأ هذا التغير، ولا نستطيع حتى أن نفطن إلى التغيرات التى تأخذ مجراها الآن على غير وعى منا، ولا نستطيع كذلك أن نقرر ما إذا كان تغير ما قد بدأ فرديا ثم اتسع مدى تطبيقه، أو أنه بدأ على ألسنة ناس مختلفين، ولا يستطاع نسبته إلى فرد معين منهم. «إن التغير الصوتى على النحو الذى شرحنا هو تغير فى عادات أداء الحركات النطقية التى تنتج عنها الأصوات. وإن تغيرًا كهذا إذا راعينا الدقة ليس ذا أهمية إذا لم يؤثر على النظام الصوتى للغة. والحقيقة إننا حتى مع وجود سجلات كاملة تحت تصرفنا لا يمكننا أن نحدد تحديدًا تاما نقطة الابتداء فى تفضيل بعض الأصوات على بعض تفضيلا يستحق أن يسمى تغيرًا تاريخيًا»[1]. ولاشك أن الكثير من التغيرات النطقية من كل نوع يرد على ألسنتنا جميعًا فى كل لحظة، ومن المؤكد أننا جميعًا نتلعثم أحيانا فننطق الكلمات على غير وجهها، وأننا نتفاصح أحيانا فنزيد من تفخيم المفخم وترقيق المرقق، وقد يدفعنا مزاج خاص أو موقف اجتماعى خاص إلى أن نخرج لساننا فى الثاء حين الكلام باللهجة العامية التى لا تشتمل بين حروفها على الثاء، أو لا نخرج اللسان فى نطق الثاء حين النطق باللغة الفصحى. فكل هذه تغيرات طارئة مؤقتة غير تاريخية، لا تؤثر فى النظم الصوتية للغة. وغالبًا ما تعتبر من باب الغلط اللغوى، أو الغلط الاجتماعى، الذى يقابل بالنقد الصامت أو اللاذع.

لابد إذًا أن يشتمل التغيير الصوتى على أثر فى الفونيمات التى يتكون منها النظام

(1) Bloomfield, L:angnage. p. 369.

الصوتى للغة. «ونستطيع أن نفهم التغير العادى فى الفونيمات إذا افترضنا أن اللغة تتكون من طبقتين من العادات. أما الطبقة الأولى فخاصة بالفونيمات (أى الوحدات الصوتية التى يتكون منها النظام الصوتى للغة). فللمتكلم عادات خاصة من حيث الجهر أو عدمه، ومن حيث حركة اللسان وهلم جرا.

وأما الطبقة الثانية فتتكون من عادات دلالية شكلية: فالمتكلمون ينطقون فى العادة مجموعات معينة من الفونيمات فى الاستجابة إلى أنواع معينة من المثيرات، ويستجيبون بطريقة خاصة حين يسمعون هذه المجموعات نفسها؛ ويتكون من هذه العادات وتلك نحو اللغة ومعجمها»[1].

وأول من تكلم فى القوانين الصوتية بمعناها الأخص، وبدأ محاولة التعبير عن معادلاتها التى تشبه المعادلات الرياضية طائفة النحاة المحدثين من علماء اللغة الألمان. ففى عام ١٨٢٢ طلع يعقوب جريم الألمانى بدراسة على الناس أطلق عليها اسم التغير الصوتى (lautverschiébung)، وأطلق عليها ماكس مولر فيما بعد اسم قانون جريم. وقد تلقف الناس هذه المعادلات الصوتية، وتناولها العلماء بالاختبار والتعديل والإضافة، حتى وصلوا بها إلى الصورة الآتية[1].

NO	I . E	Sanskrit	Greek	Latin	Celtic	Gothic
1	p	p	π	p	-	f , b
2	t	t	τ	t	t	p , d
3	k	s	k	c	c	h , g
4	qu	k , c	π,τ,κ	qu, c	Ir. c w . p	hw , w
5	b	b	β	b	b	p
6	d	d	s	d	d	t
7	g	J	ɣ	g	g	k
8	gu	g , J	β . s,	u,gu,g	b	k
9	bh	bh	ϕ	f , b	b	b
10	dh	dh	θ	f , d, b	d	d
11	gh	h	χ	h , g	g	g
12	guh	gh, h	ϕ, θ, χ	f,u,gu,g	tr. g w. gw,f	w

(1) Bloomfieid, Language, pp. 364 - 5.

(٢) ملخص من كتاب A Short I ntroduction to the Sudy of Comparative Gramar. (Indo - European) by T. Hudson Williams.

رقم مسلسل	No. =
اللغة الهندية الأوربية الأولى	I.E. =
الإيرلندية	Ir. =
لغة سكان ويلز	W. =

تلك هى المقابلات الصوتية بين اللغات الهندية الأوربية، التى تشمل لغات ما بين الهند والشاطئ الأوربى للمحيط الأطلسى، وتشتمل على السنسكريتية واللغات الهندية، والفارسية، والقوقازية، والسلافية، والإغريقية، والجرمانية، واللاتينية، والكلتية ولكل من هذه المجموعات لغات فى داخلها، وكل أولئك ينتمى إلى عائلة لغوية واحدة تسمى العائلة الهندية الأوربية. ويرى علماء اللغة أنها كلها تفرعت عن أصل واحد يسمونه Proto Indo European ويرون أنه كان يشتمل فى نظامه الصوتى على الوحدات الصوتية التى تدل عليها الرموز التى تحت .I. B فى الجدول الوارد فوق هذا الكلام. ويقول العلماء بعد ذلك: إن التطور الصوتى فى كل لغة جعل الأصوات الأصلية تصل إلى الصورة التى هى عليها فى كل خانة من خانات هذا الجدول. فمثلا نرى أن الثاء التى كانت موجودة فى الهندية الأوربية الأصلية تقابلها تاء فى كل اللغات إلا فى القوطية فتقابلها الدال أو الثاء.

وحين ظهر نجاح هذا القانون الصوتى فى المجموعة الهندية الأوربية حاول المستشرقون أن يصلوا إلى قانون مشابه له فى اللغات السامية، ولقد لاحظوا كذلك أن أصوات هذه المجموعة السامية يمكن أن يوصل إلى قانون لها، إن لم يكن فى دقة قانون جريم وشموله فهو على الأقل يعبر عن بعض اطراد التخالف بين الصوت من أية لغة وما يقابله فى أية لغة سامية أخرى. لقد درس «رايت» هذا التقابل فى كتابه Comparative Gramar of the Semitic Langages؛ وختم دراسته هذه بقوله[1]: بعد أن عالجنا الأقسام المختلفة للحروف فى الأبجدية السامية، وعددنا التغييرات الرئيسية التى تتعرض لها اللغات السامية المختلفة، أختم هذا الفرع من موضوعى بتلخيص قصير للغبيرات ذات الأهمية القصوى التى يجب النظر إلى كل خروج عنها نظرة

(١) ص ٧٣ - ٧٤.

فاحصة قبل الاعتراف بالعلاقة بين الكلمات المدروسة وأنا إذ أفعل ذلك أتبع ترتيب الأبجدية العبرية:

١ ـ ה تظل هاء في جميع اللغات واسكن أيضا

ה في أول الكلمة يقابلها في الأشورية א وفي العربية (أ) وفي الأثيوبية وفي الآرامية أو .

٢- ז يقابلها (س) في كل اللغات ولكن أيضًا.

ז يقابلها في الأشورية (ز) وفي الأثيوبية H وفي العربية (ذ) وفي الآرمية أو .

٣- ח يقابلها في الآرامية ח أو وفي الأثيوبية وفي العربية ح وفي الأشورية ولكن أيضًا.

ח يقابلها في الآرامية ח أو وفي الأثيوبية وفي العربية خ وفي الأشورية خ.

٤- י في بداية الكلمة تقابلها ى في كل اللغات إلا في الأشورية حيث تقابلها ولكن أيضًا.

י في بداية الكلمة تقابلها في الآرامية وفي الأثيوبية وفي العربية و وفي الأشورية .

٥- ס يقابلها في الآرامية أو وفي الأثيوبية وفي العربية س وفي الأشورية س أو ش

٦- ע يقابلها في الآرامية ע أو وفي الأثيوبية وفي العربية ع وفي الأشورية ولكن أيضًا.

ע يقابلها في الآرامية ע أو وفي الأثيوبية وفي العربية غ وفي الأشورية .

٧- צ يقابلها ص في جميع اللغات ولكن أيضًا.

צ يقابلها في الأثيوبية وفي العربية ظ وفي الآرامية أو وفي الأشورية ص.

يقابلها فى الأشورية وفى العربية ض وفى الآرامية أو أو
وفى الأشورية ص.

يقابلها فى الأثيوبية ( ) وفى العربية ض وفى الآرامية أو
وفى الأشورية ص.

٨- يقابلها فى الآرامية ( ) أو وفى الأثيوبية وفى العربية
ش وفى الأشورية س .

٩- يقبالها فى الأرامية وفى الأثيوبية وفى العربية س وفى الآشورية
س ولكن أيضا.

يقابلها فى الأثيوبية وفى العربية ث وفى الآرامية أو وفى
الأشورية س .

قد يظن المرء عند أول وهلة أن هذا التقعيد المتزمت لابد أن يصطبغ بالصبغة المعيارية؛ لأن هذه المقابلات يدعى لها الاطراد الدائم، وهذا الاطراد الدائم هو الصخرة التى يسقط منها الباحثون إلى قرار هوة المعيارية. ولكن نظرة فاحصة إلى الطريقة التى تم بها التعبير عن هذه المقابلات المطردة تبين إلى أى حد تتسم هذه الدراسة بالوصف. فالباحثون نظروا فى اللغات نظرة استقرائية، واستخرجوا وجوه التشابه والاختلاف بينها ثم عبروا عن المطرد من هذه الوجوه بالعبارات التى أوردناها فوق هذا الكلام وهى عبارات يوصف بها هذا الاطراد لا أكثر ولا أقل.

ومعنى هذه العبارات أن اللغات السامية قد تفرعت من أصل سامى واحد لايوجد الآن، وأن التطور الصوتى من هذا الأصل قد اتخذ طرقا متعددة على نحو ما نرى فى هذه المقابلات. وقد استغرق هذا التغير دهورًا طويلة؛ لأن مثل هذا التغير لايتم فى يوم وليلة. «إن سرعة التغير اللغوى لا يمكن التعبير عنها بعبارات قاطعة؛ فإن المتكلم لايجد فى طفولته صعوبة فى الكلام مع أجداده ولافى شيخوخته فى الكلام إلى أحفاده، ومع ذلك كانت ألف سنة ـ أى حوالى ثلاثين أو أربعين جيلا ـ كافية لتغيير اللغة الإنجليزية إلى الحد الذى أشرنا إليه من قبل»[1]. ولاشك أن اللهجات العربية

(1) Bloomfield, Language, p. 281.

كذلك تغيرت كثيرًا فى الألف سنة الأخيرة كما يبدو مما بين أيدينا من تسجيل كتابى للهجة القاهرية فى العصر الفاطمى. وما دام الفرد ذا أثر فى نمو اللغة وتطورها، فلا بد أن تتحول لهجاتنا المعاصرة إلى حالات تطورية أخرى.

يتضح من ذلك أن إلتزام الفرد بمعايير خاصة لا تعفى اللغة من التطور فى نظمها وأجهزتها؛ فإذا أراد العلماء أن يدرسوا هذا التطور الذى مر باللغة، كما فعل النحاة المحدثون الألمانيون الذين درسوا القوانين الصوتية، كانت هذه الدراسة وصفية.